نظر إلى اتضاع أمته

تأملات لمثلث الرحمات نيافة الأنبا بيشوي

تقديم

نيافة الأنبا ماركوس

أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري

ورئيس دير القديسة دميانه بالبراري

إعداد راهبات دير القديسة دميانه

تقديم

"يُخْرِجُ مِنْ كَنْزِهِ جُدُدًا وَعُتَقَاءَ" (مت١٣: ٥٢).. "وَإِنْ مَاتَ، يَتَكَلَّمْ بَعْدُ" (عب١١: ٤).

بعلم متنوع ومتسع مع تفاسير كثيرة ودقيقة تعلَّمنا من أبينا مثلث الرحمات نيافة الحبر الجليل سيدنا الأنبا بيشوي ومازلنا نتعلم من كنوز علمه ومعرفته الغزيرة في مجموعة من الكتب تصدر عن موضوعات مختلفة من عظات وتعاليم لسيدنا المطران الأنبا بيشوي يقوم بتجميعها وإعدادها للطباعة والنشر الأمهات راهبات دير القديسة العفيفة دميانه؛ وذلك لنستنشق منها عطر رائحة كاتبها، وِمن علمه الغزير، وما علَّم به طوال نصف قرن هي سنوات خدمة نيافته وذلك وفاءً وعرفانًا بتعب نيافته في تعمير الدير وإعادة الحياة الرهبانية به والاهتمام بالحياة الروحية داخل الدير بأبوة حانية ورعاية كاملة حتى أصبح الدير من أكبر وأقدم الأديرة الأثرية للراهبات في كنيستنا القبطية الأرثوذكسية.

نطلب من ربنا يسوع المسيح أن يكون لإصدار هذه الكتب الفائدة المرجوة لكل من يقرأ وينهل منها.

بصلوات وشفاعات القديسة العذراء مريم والقديسة العفيفة دميانه والأربعين عذراء وبصلوات قداسة البابا المعظم الأنبا تواضروس الثاني أطال الله حياته وحفظه للكنيسة ولشعبه.

الأنبا ماركوس

أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري

ورئيس دير القديسة دميانه بالبراري

"نَظَرَ إِلَى اتِّضَاعِ أَمَتِهِ"

يذكر معلمنا لوقا الإنجيلي بشارة الملاك للسيدة العذراء وبعدها يقول: "فَقَامَت مَرْيَمُ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ وَذَهَبَتْ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْجِبَالِ إِلَى مَدِينَةِ يَهُوذَا، وَدَخَلَتْ بَيْتَ زَكَرِيَّا وَسَلَّمَتْ عَلَى أَلِيصَابَاتَ. فَلَمَّا سَمِعَتْ أَلِيصَابَاتُ سَلاَمَ مَرْيَمَ ارْتَكَضَ الْجَنِينُ فِي بَطْنِهَا، وَامْتَلأَتْ أَلِيصَابَاتُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَصَرَخَتْ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَتْ: مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ وَمُبَارَكَةٌ هِيَ ثَمَرَةُ بَطْنِكِ! فَمِنْ أَيْنَ لِي هذَا أَنْ تَأْتِيَ أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ؟ فَهُوَذَا حِينَ صَارَ صَوْتُ سَلاَمِكِ فِي أُذُنَيَّ ارْتَكَضَ الْجَنِينُ بِابْتِهَاجٍ فِي بَطْنِي. فَطُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ" (لو ١: ٣٩-٤٥).

أما العذراء مريم فحينما تكلمت كان أول ما قالته:

"تُعَظِّمُ نَفْسِي الرَّبَّ، وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللهِ مُخَلِّصِي، **لأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى اتِّضَاعِ أَمَتِهِ.** فَهُوَذَا مُنْذُ الآنَ جَمِيعُ الأَجْيَالِ تُطَوِّبُنِي" (لو ١: ٤٦-٤٨).

كلمة "أمة" تعني عبدة خادمة.. وهي مؤنث "عبد".

قالت السيدة العذراء عن نفسها أنها "أمة متواضعة"، وكان ذلك أيضًا هو ردها على الملاك المبشر: "هُوَذَا أَنَا **أَمَةُ** الرَّبِّ" (لو ١: ٣٨).

ما هو التواضع؟

التواضع يجعل الإنسان يشعر أنه لا يستحق الكرامة التي ينالها..

التواضع يجعل الإنسان يطيع الله، ويطيع من هم أكبر منه، ويكون إنسانًا مطيعًا عمومًا.

التواضع يجعل الإنسان يشعر أمام الله أنه مجرد تراب ورماد، كما قال إبراهيم أب الآباء: "إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ وَرَمَادٌ" (تك ١٨، ٢٧).

التواضع يجعل الإنسان يهرب من الكرامة..

التواضع يجعل الإنسان يفرح بالمحقرة والإهانة..

التواضع يجعل الإنسان يرفض الرئاسات ويهرب منها ويشتهي المتكأ الأخير..

التواضع يجعل الإنسان يحتمل التجارب والآلام..

التواضع يجعل الإنسان لا يسقط في الغضب، لأن الغضب والكبرياء متلازمان. لذلك قال السيد المسيح "تَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ" (مت ١١: ٢٩)..

التواضع يجعل الإنسان لا يحب الشهرة..

التواضع يجعل الإنسان يخفي فضائله، ولا يحب أن يعرف الناس عنه شيئًا، ولا يحب أن يمتدحه أحد، ولا يحب أن يكتشف أحد ما يقدمه من تضحيات من أجل محبته لله..

وقد اتصفت السيدة العذراء مريم بالتواضع، وكذلك يوحنا المعمدان الذي قال عن المسيح: "يَنْبَغِي أَنَّ ذلِكَ يَزِيدُ وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ" (يو ٣: ٣٠).

أما السيد المسيح فقيل عنه: "الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ مساواته لله اختلاسًا لكِنَّهُ **أَخْلَى نَفْسَهُ**، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، **وَضَعَ نَفْسَهُ** وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ" (في ٢: ٦-٨). وعبارة "وَضَعَ نَفْسَهُ" تعني تواضع أو اتضع. والتواضع في حياة السيد المسيح جعله يغسل أرجل تلاميذه وهو السيد والمعلم، وهو الذي تجثو له الملائكة ورؤساء الملائكة.

التواضع بدونه لا يمكن بناء أية فضيلة روحية. لأن أية فضيلة روحية غير مؤسسة على الاتضاع تكون كمن يبني بيته على الرمل بدون أساس، فإذا جاء أي مؤثر خارجي يهدم البيت.

التواضع هو من الأساسات الرئيسية في بناء برج الفضيلة في حياتنا. وأية فضيلة تخلو من المحبة والاتضاع لا تحسب فضيلة على الإطلاق كقول قداسة البابا شنوده الثالث.

وكمثال لفضيلة تخلو من المحبة والاتضاع هو الإنسان الذي يقدِّم من ماله لبناء كنيسة ولا يكون عطاؤه هذا بدافع المحبة بل بدافع الشهرة. عنده دوافع أخرى غير المحبة والاتضاع، لذلك لا يُحسب عطاؤه فضيلة.

ما هي ملامح التواضع في حياة العذراء مريم؟

١- لا تهتم بكرامتها

نبدأ من البداية: كانت مريم عذراء عفيفة مخطوبة، لكن ليس للزواج لأنها نذرت البتولية، وكانت ستعيش مع يوسف بدون زواج فعلي. ثم فوجئت بالملاك يقول لها إنها سوف تحبل وتلد ابنًا، فاستفسرت: "كَيْف يَكُونُ هذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلاً؟" (لو ١: ٣٤)، وهنا أوضح لها الملاك كيفية حدوث ذلك: "اَلرُّوحِ الْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، فَلِذلِكَ أَيْضًا الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ابْنَ اللهِ" (لو ١: ٣٥). وبذلك طمأنها من جهة رغبتها في البتولية.

وهنا، يجب أن نفهم مفهوم الخطبة عند اليهود:

كانت الخطبة تعتبر ارتباطًا أو نوعًا من الزواج، ولذلك في شريعة موسى كان يحكم بالرجم على الفتاة المخطوبة إذا أخطأت مثلها مثل المتزوجة تمامًا لأنها مرتبطة برجل (انظر تث ٢٢). فكانت المخطوبة تعتبر زوجة، مجرد أنها لم تزف بعد أو لم تنتقل إلى بيت زوجها. ولم تكن الخطبة تُفَك إلا بالطلاق. وهذا يختلف عن مفهوم الخطبة في أيامنا هذه: إنها مجرد وعد بالزواج، ومسألة بسيطة تتمثل في دبلة، وربما شبكة، لكن ليس على المخطوبة التزام كزوجة. فالوضع في أيام السيدة العذراء ليس مثل الوضع في أيامنا.

كانت العذراء مريم مخطوبة لرجل بالمفهوم اليهودي في أيامها، ثم قال لها الملاك إنها سوف تحبل وتلد، وشرح لها أن ذلك سيتم بالروح القدس، فحل لها مشكلة إنها لا تعرف رجلاً، لكن ماذا سيقول الناس الذين لا يعرفون ما قاله لها الملاك؟ إن الملاك لم يشرح لخطيبها ولا للأهل والمعارف.

هنا، وكان يمكن للكرامة أن تلعب دورًا كبيرًا جدًا.

لقد صدَّقت العذراء معجزة عظيمة وهي أنها ستحبل بفعل الروح القدس وقوته، لكن ماذا عن باقي الناس؟ وماذا عن خطيبها؟

وحدث فعلاً أن يوسف خطيبها لاحظ، وبدأ يفكر في أن يطلقها، لكنه احتار هل يطلقها علنًا ويقول السبب فيعرضها للرجم وعقوبة الناموس، أم يخليها سرًا؟ يقول الكتاب: "فَيُوسُفُ رَجُلُهَا إِذْ كَانَ بَارًّا، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُشْهِرَهَا، أَرَادَ تَخْلِيَتَهَا سِرًّا. وَلكِنْ فِيمَا هُوَ مُتَفَكِّرٌ فِي هذِهِ الأُمُورِ، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لَهُ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ، لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ. لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ" (مت ١: ١٩-٢١).

كان يوسف بارًا وقديسًا عظيمًا ومع ذلك وقع في مشكلة، فأرسل له الله الملاك ليشرح له، فما بال عامة الناس؟ إذا كان القديس شك فماذا يُنتظر من الناس العاديين أو من الأشرار؟

لا يقدر على هذا الموقف، الذي هو موقف فضيحة عظمى، إلا شخصية لا يهمها نظرة الناس، بل يهمها فقط إرضاء الله وطاعته المقترنة بتواضع لا يمكن وصفه.

ما معنى ذلك؟

للتوضيح نقول إن هناك إنسان مستعد أن يطيع الله في أي شيء ماعدا أن يُفضَح ويُشهَّر به وسط الناس. فهو ربما يفضِّل الموت على الفضيحة.

وفي حالة السيدة العذراء مريم، فإن من كان سيتم التشهير بها في فضيحة هي فخر العذارى وفخر البتولية، التي نقول عنها في الشيرات الأولى يوم السبت: ⲡⲱⲟⲩⲱⲟⲩ ⲛⲧⲉ ⲧⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲓⲁ (إبشوشو إنتى تي بارثينيا) بمعنى "فخر العذراوية" أو "فخر البتولية". أي أننا حينما نتكلم عن البكورية والعذراوية والطهارة والعفة تكون العذراء هي فخر كل ذلك، وكل العذارى يتخذونها كمثل أعلى لهن.

التي تكون على هذه الدرجة من النقاء، يصعب عليها جدًا أن توضع في موقف ينظر إليها فيه كامرأة زانية وهي مرتبطة برجل وأمام الجميع متزوجة رسميًا.

عجيبة هذه العذراء، فبمجرد إنها اطمأنت على بتوليتها قالت للملاك "هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ" (لو ١: ٣٨)، دون أن تطلب أي ضمانات ضد الفضيحة، أو تضع أي شروط مثل أن يذهب الملاك أولاً ويقول ليوسف أو للأهل أو لكل بلاد يهوذا لئلا توضع في مأزق.

أنا أتعجب لهذه العذراء القديسة التي كل ما كان يهمها هو أنها ستظل بتولاً أما كرامتها فلم يكن لها أي حساب.

لم تكن تهمها الكرامة بأية درجة لذلك بروح النبوة قالت: "لأنه نَظَرَ إِلَى اتِّضَاعِ أَمَتِهِ".

العذراء مريم تتكلم بروح النبوة:

في تسبحتها قالت: "**صَنَعَ قُوَّةً بِذِرَاعِهِ. شَتَّتَ الْمُسْتَكْبِرِينَ** بِفِكْرِ قُلُوبِهِمْ. أَنْزَلَ الأَعِزَّاءَ عَنِ الْكَرَاسِيِّ **وَرَفَعَ الْمُتَّضِعِينَ**" (لو ١: ٥١، ٥٢).

هذا ما قالته في أسبوعها الأول من الحمل والطفل لم يكمل أسبوعه الأول. والدليل على ذلك إنها قالت هذا الكلام في لقائها الأول مع أليصابات، حينما كانت أليصابات حبلى في الشهر السادس كما قال الملاك، ثم يقول معلمنا لوقا البشير: "مَكَثَت مَرْيَمُ عِنْدَهَا نَحْوَ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. وَأَمَّا أَلِيصَابَاتُ فَتَمَّ زَمَانُهَا لِتَلِدَ" (لو ١: ٥٦، ٥٧). ستة أشهر وثلاثة أشهر هي تسعة أشهر مدة حمل أليصابات، وهو تمام زمانها لتلد، وهذا معناه إن مريم ذهبت إلى أليصابات بعد بشارة الملاك مباشرة لأنها لو تأخرت شهر كانت ستمكث عند أليصابات شهرين.. وهكذا...

ويقول الكتاب أيضًا: "فَقَامَتْ مَرْيَمُ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ **وَذَهَبَتْ بِسُرْعَةٍ** إِلَى الْجِبَالِ إِلَى مَدِينَةِ يَهُوذَا (أورشليم)، وَدَخَلَتْ بَيْتَ زَكَرِيَّا وَسَلَّمَتْ عَلَى أَلِيصَابَاتَ" (لو ١: ٣٩-٤٠).

ورغم أن مريم كانت في ذلك الحين أمام مشكلة كبيرة ليس لها حل، إلا إنها قالت: "صَنَع قُوَّةً بِذِرَاعِهِ. شَتَّتَ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِفِكْرِ قُلُوبِهِمْ. أَنْزَلَ الأَعِزَّاءَ عَنِ الْكَرَاسِيِّ وَرَفَعَ الْمُتَّضِعِينَ" (لو ١: ٥١، ٥٢). تتكلم وكأن كل شيء قد تم في الماضي.. تتكلم بروح النبوة عما لم يكن الله قد تممه بعد.

"يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ":

بعد أن مكثت مريم ثلاثة أشهر عند أليصابات عادت إلى بيتها وهي حبلى في الشهر الثالث. فظهر الملاك ليوسف وقال له: "يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ، لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ". لاحظوا أن الملاك لم يقل له: "لا تخف أن تأخذ امرأتك" لكنه حدد "مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ" لأنه فيما يوسف محتار في أمر مريم ربما يظن أن الملاك يقصد أنه يأخذ غيرها. كما قصد الملاك أن يقول له: "يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ" ليذكِّره إنه من سبط يهوذا، ومن نسل داود الملك، لأن هناك وعد بأن المسيح يأتي من نسل داود. فكان يهيئه ذهنيًا..

مذكور أن "جَمِيع الأَجْيَالِ مِنْ إِبْراهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً، وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً، وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى الْمَسِيحِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً" (مت ١: ١٧)، هذا معناه أن بين داود ويوسف ٢٨ جيلاً، ومع ذلك يقول له الملاك: "يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ". وكأن الملاك يريد أن يقول له إنه يُمثِّل داود ومملكته، لينتبه لما سيقال له بعد هذا النداء:

"لا تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ. لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو **اسْمَهُ يَسُوعَ**. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ" (مت ١: ٢٠-٢١).

كلمة "يسوع" יֵשׁוּעַ = يهو יהו (مقطع من يهوه) + الفعل שׁוּעַ "شوع" بمعنى "خلَّص"، فمعناها "يهوه خلَّص"، لذلك أكمل الملاك بقوله: "لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ".

وأكمل: "وَهذا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: هُوَذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ، الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اَللهُ مَعَنَا" (مت ١: ٢٢-٢٣).

هنا ذكَّر الملاك يوسف بعبارة إشعياء النبي: "هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ" (إش ٧: ١٤) التي يعرفها يوسف لكنه

لم يكن يفهم كيف يحدث ذلك. ثم ذكر له بوضوح معنى الكلمة العبرية "عمانوئيل" أنها تعني "الله معنا". فقد تكلم إشعياء النبي عن عذراء ستحبل وتلد ابنًا هو الله الظاهر في الجسد ولابد أن تتحقق النبوة. وكأن لسان حال الملاك يقول: لا تتعجب يا يوسف أن يحدث هذا مع سيدة الطهر والعفاف التي لا يوجد أطهر منها. إن ما يحدث مع مريم امرأتك هو تحقيق نبوة: "هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا"، وهذا الابن هو يهوه المخلص، الله الظاهر في الجسد، المسيا الذي انتظرته جميع الأجيال.

فشعر يوسف أنه غير مستحق لهذا الشرف العظيم أن يكون هذا الابن هو ابنه بالانتساب، وأن خطيبته لم ير الله مثلها في كل نساء العالم فاختارها لتتحقق النبوة. إنه شرف له أن يكون خادمًا لهذا الابن ولأمه العذراء أيضًا. لذلك كان مستعدًا أن يهرب بهما إلى أرض مصر في رحلة طويلة على قدميه ويحتمل متاعب كثيرة.

أظهر يوسف قبولاً واستعدادًا ورضاءً واقتناعًا، "فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ يُوسُفُ مِنَ النَّوْمِ فَعَلَ كَمَا أَمَرَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ، وَأَخَذَ امْرَأَتَهُ" (مت ١: ٢٤).

وعبارة "أَخَذَ امْرَأَتَهُ" تعني أخذها إلى بيته لأنها لم تكن بعد قد دخلت إلى منزله.

وقد اختار الله أن تكون السيدة العذراء مخطوبة ليكون لها زوج رسمي فتحبل وتلد ويظن الجميع أن يسوع هو ابن يوسف.

٢- لها طاعة وإيمان

إن ما هو لافت للنظر ومبهر هو أن السيدة العذراء في كل الأحداث لم تبالِ بشيء، ولا حاولت أن تقنع يوسف، ولم تهمها كرامتها، فالكرامة الحقيقية بمفهومها كانت في طاعتها للرب.

وطبعًا لكي يقدر الإنسان أن يطيع بهذه الصورة لابد أن يكون عنده إيمان قوي. والسيدة العذراء كان لها هذا الإيمان، إنه طالما أن الله أرسل الملاك يقول لها: "ها أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ. هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ" (لو ١: ٣١-٣٣)، فإن هذا يعني أنها لن ترجم وأنها ستلد هذا الابن. كانت متأكدة أن الله طالما قال شيئًا فسوف يجريه وسيتحقق. وليست مسئوليتها أن تدافع عن أعمال الله.

وقالت مريم في تسبحتها: "لأَنَّ الْقَدِيرَ صَنَعَ بِي عَظَائِمَ، وَاسْمُهُ قُدُّوسٌ. وَرَحْمَتُهُ إِلَى جِيلِ الأَجْيَالِ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَهُ" (لو ١: ٤٩-٥٠).

فهي تتكلم بصيغة الماضي، لأنها **بالإيمان ترى مسلسل من العظائم التي سيجريها الله معها**، بدأ بتجسد الله الكلمة ابن الله الوحيد وسيستمر إلى ما لا نهاية.

لكي يكون الإنسان متواضعًا يحتاج أن يكون عنده إيمان، هذا الإيمان يعطيه طمأنينة ويشعر أنه حتى إن فقد كرامته هنا على الأرض فسوف يتمجد هناك في الأبدية. كما قال معلمنا بولس الرسول: "أَن آلاَمَ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ لاَ تُقَاسُ بِالْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُسْتَعْلَنَ فِينَا" (رو ٨: ١٨).

٣- لها روح الخدمة

من ضمن ملامح التواضع عند العذراء مريم إنها حينما ذهبت إلى أليصابات وقالت لها أليصابات من باب التكريم: "مُبَارَكَة أَنْتِ فِي النِّسَاءِ وَمُبَارَكَةٌ هِيَ ثَمَرَةُ بَطْنِكِ. فَمِنْ أَيْنَ لِي هذَا أَنْ تَأْتِيَ أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ؟!" (لو ١: ٤٢-٤٣)، رغم ذلك مكثت عندها تخدمها ثلاثة أشهر. على المستوى العملي الفعلي كانت العذراء مريم تعمل كخادمة في البيت طوال هذه الفترة.

لم تكن زيارتها لأليصابات للتباهي، بل للخدمة.. ذهبت لتخدم أليصابات لأنها علمت من الملاك أنها حبلى في الشهر السادس، وقد أخفت نفسها، فلا أحد يعلم بهذا السر الذي أعلنه لها الملاك، ولابد أنها كعجوز تحتاج من يعينها في هذه الظروف.

هناك إنسان حينما ينال كرامة يتعظم ويشعر أن الكل لابد أن يخدمه، أما السيدة العذراء فينطبق عليها قول السيد المسيح: "مَن أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ عَظِيمًا فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِمًا، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ أَوَّلاً فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْدًا" (مت ٢٠: ٢٦-٢٧).

إن كل ما قاله السيد المسيح عن التواضع نستطيع أن نراه في العذراء مريم التي كانت عظيمة في تواضعها ولذلك استحقت أن تصير هي الشفيعة المؤتمنة، وأن تصير السماء الثانية، وأن تصير مكرمة جدًا أكثر من الشاروبيم والسيرافيم.

٤- بصمتها تخفي فضائلها

الإنسان المتواضع يخفي فضائله، والسيدة العذراء لم نسمع مطلقًا أنها أعلنت للآخرين شيئًا عن زيارة الملاك لها ولا عما قاله لها الملاك في بشارته.

وحينما نقرأ الأناجيل نجد مناقشات دارت حول السيد المسيح، منها: "أَمِن النَّاصِرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ صَالِحٌ؟" (يو ١: ٤٦)، "أَلَعَل الْمَسِيحَ مِنَ الْجَلِيلِ يَأْتِي؟ أَلَم يَقُلِ الْكِتَابُ إِنَّهُ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ، وَمِنْ بَيْتِ لَحْمٍ، الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَ دَاوُدُ فِيهَا، يَأْتِي الْمَسِيحُ؟" (يو ٧: ٤١، ٤٢)، "فَتِّش وَانْظُرْ! إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ نَبِيٌّ مِنَ الْجَلِيلِ" (يو ٧: ٥٢). فلا نجد السيدة العذراء في أية مرة تدخلت في هذه المناقشات معلنة ما قاله لها الملاك مثل: "يُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ" (لو ١: ٣٢-٣٣). ولا أعلنت أنه ولد في بيت لحم، ولا إنه ابن داود ووارث للعرش.

وحتى لما رفض اليهود قبول إنه ابن الله (انظر لو ٢٢: ٧٠؛ يو ١٠: ٣٦)، بل قالوا لبيلاطس: "يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ، لأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ابْنَ اللهِ" (يو ١٩: ٧)، وهي سمعت من الملاك: "هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى" (لو ١: ٣٢)، وأيضًا "الْقُدُّوس الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ابْنَ اللهِ" (لو ١: ٣٥) إلا إنها في كل ذلك لم تتكلم.

وسط مناقشات كثيرة حول السيد المسيح لم تتكلم بل كل ما قيل عنها: "أَما مَرْيَمُ فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذَا الْكَلاَمِ مُتَفَكِّرَةً بِهِ فِي قَلْبِهَا" (لو ٢: ١٩).

عجيبة جدًا أن تظل أم صامتة وهي تسمع الناس يتكلمون عن ابنها الوحيد ويقولون: إن هذا لا يمكن أن يكون المسيح، وإنه مضل، وإنه كذاب، وإنه ليس المسيح المرسل إلى العالم، وإنه ليس ابن الله، وإنه يستحق الموت: "كَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَكْثَرَ أَنْ يَقْتُلُوهُ، لأَنَّهُ لَمْ يَنْقُضِ السَّبْتَ فَقَطْ، بَلْ قَالَ أَيْضًا إِنَّ اللهَ أَبُوهُ، مُعَادِلاً نَفْسَهُ بِاللهِ" (يو ٥: ١٨)، ويهمون لرجمه قائلين له: "لَسْنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَل حَسَنٍ، بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ، فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلهًا" (يو ١٠: ٣٣).

تصوروا أم تسمع من يقولون إنهم سوف يقتلون ابنها لأنه يقول عن نفسه إنه ابن الله ولا تتدخل لتقول الحقيقة!..

لم نسمع أنها تدخلت مرة واحدة أو قالت أي شيء لليهود: لا انتهرتهم، ولا وبختهم، ولا قالت لهم أنتم لا تفهمون، ولا حكت لهم ما قاله الملاك الذي ظهر لها، ولا موضوع المجوس الذين زاروها وقد أتوا من المشرق سائلين: "أَيْن هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ" (مت ٢: ٢).

مثال توضيحي: لو أي أم سمعت أن بعض الغوغاء سيضربون ابنها في الشارع، ألا تنزل بسرعة وتصرخ بأعلى صوتها وتظل تصرخ حتى تنقذ ابنها؟ أو لو أي أم سمعت أن البوليس سيقبض على ابنها وهو بريء ألا تصرخ وتقول ابني بريء ومظلوم؟

هل توجد أم بمنتهى البساطة تجد ابنها يُقبض عليه، ويُلطم، ويُضرب، ويُتفل على وجهه، ويُحاكم محاكمات ظالمة، ويُتهم بكل ما اتُهم به السيد المسيح من اليهود مع سوء معاملة من الرومان، ويُسمَّر على خشبة، ويُعلق على صليب، وفي كل هذا لا تتكلم كلمة!؟! إنها إنسانة عجيبة فعلاً..

لذلك لما ذهبت لتقف عند الصليب لم يعترض أحد طريقها وتركوها واقفة بجوار الصليب في هدوء، كانت كالنسمة الرقيقة، في قمة الوداعة وقمة الصفاء.

إن كانت قد تعرضت للجنود في أية مرحلة من مراحل تعذيبه، أو حتى صرخت، أو أمسكت بيد من يقوم بتسميره على الصليب لتمنعه... إلخ. لكانوا قد طردوها من المكان وربما عاقبوها. مع أنها لا تلام إن تعرضت للجنود لأنه ابنها، ولأنه مظلوم، ومن حقها أن تحتج، لكن **كانت قدرتها على الصمت والسكون هائلة.**

وقفت بجانب الصليب تقول: "أما العالم فيفرح لقبوله الخلاص وأما أحشائي فتلتهب عند نظري إلى صلبوتك الذي أنت صابر عليه من أجل الكل يا ابني وإلهي".

٥-تَسبَح في جو من التأمل الروحي

قال لها الملاك "يُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ"، فأي شخصية في مكانها كانت وقت الصلب ستتساءل أين هو عرش الملك هل هو هذه الخشبة؟ هل في المهانة؟ هل في إكليل الشوك؟ أين هو الرداء الملوكي وهو معلق عريانًا؟

أما السيدة العذراء فكانت في جو مختلف تمامًا، فأمامها المزمور القائل "الرب قد ملك على خشبة" (مز ٩٦: ١٠)، والمزمور القائل "كُرْسِيُّك يَا اَللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قَضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قَضِيبُ مُلْكِكَ" (مز ٤٥: ٦). لذلك معلمنا بولس الرسول في الإصحاح الأول من رسالته للعبرانيين يقول: "عَنِ الْمَلاَئِكَةِ يَقُولُ: الصَّانِعُ مَلاَئِكَتَهُ رِيَاحًا وَخُدَّامَهُ لَهِيبَ نَارٍ. **وَأَمَّا عَنْ الابْنِ: كُرْسِيُّكَ يَا اللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قَضِيبُ** اسْتِقَامَةٍ قَضِيبُ مُلْكِكَ" (عب ١: ٧، ٨).

المشهد عند الصليب كان في منتهى الرهبة، وهي واقفة في هدوء تسمع تسابيح الملائكة تقول: "كُرْسِيُّك يَا اَللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ.

قَضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قَضِيبُ مُلْكِكَ". نحن في يوم الجمعة العظيمة الذي تخزّن له الكنيسة أعظم ألحانها نقول لحن πεκὸρολος (بك إثرونوس) "كُرْسِيُّك يَا اَللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ".

كانت متألمة حقًا، لكنها كانت تَسبَح في جو من التأمل الروحي والثيئوريا (رؤية الإلهيات).

قال لها الملاك: "يَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ"، بمعنى إن عرشه هو عرش أبدي وله ملكوت لا يزول إلى الأبد: "سُلْطَانُه سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُولَ، وَمَلَكُوتُهُ مَا لاَ يَنْقَرِضُ" (دا ٧: ١٤).

لتقريب المعنى نذكر القصص الحقيقية التالية:

يُحكى عن القديس الأنبا صرابامون أبو طرحة إنه كان يصلي القداس الإلهي في كنيسة السيدة العذراء بشبين الكوم، وبعد تحول الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه، رأى قبة الكنيسة مفتوحة والسماء مفتوحة، فظل رافعًا عينيه نحو السماء لمدة نصف ساعة، وبعد نهاية القداس سأله تلميذه الشماس لماذا ظل نصف ساعة صامتًا في القداس. فقال له لقد كانت أقل من ثانية! فظل الشماس

يستفسر منه إلى أن قال له إنه رأى قبة الكنيسة مفتوحة والسماء مفتوحة ولم يشعر بالوقت.

وفي مرة أخرى كان القديس الأنبا صرابامون يصلي على المذبح وفي أثناء ذلك كان صبي صغير يجري في حوش الكنيسة حيث توجد بئر عميقة، فسقط الصبي في البئر، فصرخ القديس الأنبا صرابامون (وهو متجه للشرق داخل المذبح) وقال: "حوشيه يا عذراء"، فرفعت السيدة العذراء الصبي من البئر وخرج سليمًا.

لقد استنجد القديس الأنبا صرابامون بالعذراء وهو يصلي على المذبح، وعلى نفس المذبح رأى السماء مفتوحة، فهل السيدة العذراء نفسها لا ترى السماء مفتوحة وهي واقفة بجوار صليب رب المجد أثناء تقديم الذبيحة التي منها تستمد ذبيحة القداس قوتها وفاعليتها لأنها هي نفسها ذبيحة الصليب؟!

والقديس إستفانوس رئيس الشمامسة وأول الشهداء أثناء محاكمته ورجمه أمام مجمع اليهود قال: "هَا أَنَا أَنْظُرُ السَّمَاوَاتِ مَفْتُوحَةً، وَابْنَ الإِنْسَانِ قَائِمًا عَنْ يَمِينِ اللهِ" (أع ٧: ٥٦).

هكذا السيدة العذراء وهي واقفة بجوار الصليب، كانت بروح النبوة ترى المسيح وهو صاعد إلى السماء وجالس عن يمين الآب، كرؤية، مع أن ذلك سيحدث بعد قيامته من بين الأموات.

إن إبراهيم أب الآباء حينما همَّ ليذبح ابنه إسحق يقول عنه السيد المسيح: "أَبُوكُم إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ" (يو ٨: ٥٦)، لأن الملاك ظهر له وقال: "لا تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا" (تك ٢٢: ١٢)، وأراه خروفًا ليقدمه عوضًا عن ابنه، "فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ **يَهْوَهْ يِرْأَهْ**. حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: فِي جَبَلِ **الرَّبِّ يُرَى**" (تك ٢٢: ١٤)، لأنه في هذه اللحظات رأى بروح النبوة، السيد المسيح وهو على الصليب، كما رآه وهو قائم من بين الأموات، وكان ذلك قبل مجيء المسيح بثلاثة آلاف سنة. رأى أمورًا لم تحدث بعد لأن المسيح لم يكن قد تجسد بعد.

إن السيدة العذراء في صمتها كانت تعطي فرصة لله أن يكلمها لذلك يقول الآباء: "سكت فمك ليتكلم قلبك وسكت قلبك ليتكلم الله".

٦- تحسب نفسها غير مستحقة

السيدة العذراء كانت تحسب نفسها غير مستحقة للكرامة وأنها تراب ورماد. كما قال إبراهيم: "إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ وَرَمَادٌ"

(تك ١٨: ٢٧). هناك إنسان حينما يعطيه الله كرامة يرتفع قلبه وآخر حينما يعطيه الله كرامة يتضع قلبه.

بالنسبة لنا الإنسان المتضع هو من يحتقر ذاته.

القديس صرابامون أبو طرحة كان اسمه صليب، وكان بائع زيت، فكانت ملابسه دائمًا ملطخة ببقع كبيرة من الزيت. حينما صار يعمل معجزات كان يقول لنفسه: "يا واد يا صليب يا بتاع الزيت يا مزيت بقيت بتعمل معجزات؟" لم يكن يتعالى حينما يعمل المعجزة بل كان قلبه يزداد انسحاقًا.

وفي وقت من الأوقات دخل الشيطان في زهرة ابنة محمد علي، فأرسلها محمد علي للبابا في البطريركية، وفي ذلك اليوم كان الأنبا صرابامون قد حضر لزيارة البابا وكان منتظرًا في الدور السفلي. فلما أحضروها للبابا قال لهم: "خذوها لأنبا صرابامون يصلي لها". فلما أحضروها لأنبا صرابامون قال كيف أصلي والبابا موجود هذا لا يصح! وطلع للبابا في الدور العلوي يعتذر، فأمره البابا، فقال له: "طب ادیني الصليب بتاعك أصلي به"، فأعطاه البابا صليبه، فنزل به إلى زهرة قائلاً: "بقوة صليب قداسة البابا أنا آمرك أيها الروح النجس"، فقال الشيطان: "أنا حلاقيها منك ولا من اللي فوق (يقصد

البابا) أنا خارج؟" وخرج الشيطان بسبب اتضاع البابا الذي جعل الأنبا صرابامون يصلي ليخرج الروح النجس، وبسبب الأنبا صرابامون الذي له موهبة إخراج الشياطين لكنه ينكر ذاته ويقول: "بقوة صليب البابا". خرج الشيطان دون أن يقول الأنبا صرابامون شيئًا غير هذه العبارة الواحدة التي لم يحتملها الشيطان لما فيها من اتضاع.

٧- وديعة تعمل الخير في الخفاء

التواضع يجعل الإنسان يحتمل ويصبر على الآلام والتجارب والإهانات.. والتواضع يمنع مشاكل كثيرة. والتواضع يجعل الإنسان محبوبًا من الآخرين. الناس يرتاحون للإنسان المتواضع ويتعبون من المتكبر لذلك قال السيد المسيح: "طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ" (مت ٥: ٥) وعبارة "يَرِثُونَ الأَرْضَ" لا تعني يمتلكون أفدنة كثيرة، إنما تعني يكسبون قلوب الكثيرين، وتعني أيضًا أنهم يجتذبون للرب أناسًا كثيرين.

دعيت العذراء مريم إلى عرس في قانا الجليل، وكان المسيح وتلاميذه مدعويين إلى العرس، ثم فرغ الخمر، فذهبت السيدة العذراء للسيد المسيح وقالت له: "لَيْس لَهُمْ خَمْرٌ" (يو ٢: ٣)، فقال لها إنه

لا ينوي عمل معجزات الآن: "لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ" (يو ٢: ٤)، لكنها علمت إنه لن يرد لها طلبًا فقالت للخدام: "مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ" (يو ٢: ٥)، فقال لهم: "امْلأُوا الأَجْرَانَ مَاءً. فَمَلأُوهَا إِلَى فَوْقُ. ثُمَّ قَالَ لَهُمُ: اسْتَقُوا الآنَ وَقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْمُتَّكَإِ فَقَدَّمُوا"، ورئيس المتكأ (كبير البلد) "لَم يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هِيَ" (يو ٢: ٧-٩)، فقال للعريس: "كُل إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَضَعُ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ أَوَّلاً، وَمَتَى سَكِرُوا فَحِينَئِذٍ الدُّونَ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ إِلَى الآنَ" (يو ٢: ١٠). لماذا رئيس المتكأ "لَم يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هِيَ"؟

السبب هو إن السيدة العذراء لم تعلن ما حدث، بل لم تعلم أحدًا، علاوة على ذلك فقد أوصت الخدام ألا يقولوا لأحد شيئًا لئلا يسبب ذلك حرجًا لأصحاب الحفل، وأوصت أن يجعلوا ما يظهر أمام الناس هو أن أصحاب العرس هم من يقدمون هذا الخمر.

هي طلبت المعجزة وأخفت ما فعلته، بحسب وصية السيد المسيح: "لا تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ" (مت ٦: ٣)، عملت الخير في الخفاء.

يكمل معملنا يوحنا الإنجيلي: "هذِهِ بِدَايَةُ الآيَاتِ فَعَلَهَا يَسُوعُ فِي قَانَا الْجَلِيلِ، وَأَظْهَرَ مَجْدَهُ، فَآمَنَ بِهِ تَلاَمِيذُهُ" (يو ٢: ١١). فالتلاميذ فقط

عرفوا لأنهم كانوا جالسين حول السيد المسيح، وهم وحدهم رأوا السيدة العذراء وهي تكلمه، ثم سمعوه وهو يقول للخدام: "امْلأُوا الأَجْرَانَ مَاءً" ثم يقول: "اسْتَقُوا الآنَ وَقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْمُتَّكَإِ"، وربما سمعوا تحذيرها ألا يقولوا شيئًا، لئلا يسبب ذلك حرجًا لأصحاب العرس أمام المدعوين.

الخط الثابت في حياة العذراء:

الخط الثابت في حياة العذراء مريم من بداية ما تكلم عنها الكتاب المقدس إلى نهاية حديثه عنها في سفر أعمال الرسل، هو أنها **كانت دائمًا تنكر نفسها، دائمًا صامتة، دائمًا صابرة، دائمًا محتملة** مثل السيد المسيح الذي قيل عنه: "لا يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ" (مت ١٢: ١٩). لا يعقل أن يختار أمًا تفضحه وسط الناس، ويوم جنازته تعمل فضيحة كما نرى أحيانًا في بعض الجنازات.

اختار السيد المسيح أُمًا مُشرِّفة ترفع راية المجد الروحي اللائق **بوالدة الإله** وهو اللقب الذي قيل لها بالروح القدس الذي ملأ أليصابات: "مِن أَيْنَ لِي هذَا أَنْ تَأْتِيَ **أُمُّ رَبِّي** إِلَيَّ" (لو ١: ٤٣).

وأليصابات هي أم من قال عنه السيد المسيح: "لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ" (مت ١١: ١١). أم أعظم مواليد النساء هذه تقول للعذراء: "مِن أَيْنَ لِي هذَا أَنْ تَأْتِيَ أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ"؟ أعظم قديسة التي هي أم أعظم قديس تقول للسيدة العذراء أنا لا أستحق أن تأتي إليَّ، ولا أستحق مجرد أن أسلم عليكِ.

السيدة العذراء نالت كرامة بمقدار تواضعها

لكي نوضح مكانة السيدة العذراء نتيجة لتواضعها نذكر يوحنا الحبيب. هو يوحنا ابن زبدي "التِّلْمِيذ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ" (يو ٢١: ٧)، الذي في وقت العشاء الأخير "كَان مُتَّكِئًا فِي حِضْنِ يَسُوعَ" (يو ١٣: ٢٣)، وهو الوحيد الذي أعلمه السيد المسيح عمن يسلمه: "الَّذِي أَغْمِسُ أَنَا اللُّقْمَةَ وَأُعْطِيهِ. فَغَمَسَ اللُّقْمَةَ وَأَعْطَاهَا لِيَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ" (يو ١٣: ٢٦)، كما إنه أحد الثلاثة مع أخيه يعقوب وبطرس الذين كان السيد المسيح يأخذهم معه في المواقف المهمة مثل معاينة تجليه على جبل التجلي، وإقامة ابنة يايرس من الموت إلخ.. ويوحنا هذا هو الوحيد من التلاميذ الذي كان واقفًا عند صليب السيد المسيح لذلك خصَّه السيد المسيح بأن أعطاه السيدة العذراء كهدية. وهي أغلى شيء لديه على الأرض. فقال لها: "يَا

امْرَأَةُ، هُوَذَا ابْنُكِ. ثُم قَالَ لِلتِّلْمِيذِ: هُوَذَا أُمُّكَ. وَمِن تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ" (يو ١٩: ٢٦، ٢٧).

لو تأملنا في علاقة يوحنا بالسيد المسيح ومواقفه وقربه منه والإنجيل الذي كتبه مع سفر الرؤيا وكلامه عن السيد المسيح الذي يشير إلى ألوهيته، وعبارات إنجيل يوحنا التي تعتبر أقوى عبارات في الرد على الهراطقة الذين ينكرون ألوهية السيد المسيح نعرف مكانة يوحنا هذا، فهو الإنجيلي، والرائي، والناطق بالإلهيات.

لكن بالرغم من كل المميزات التي أعطيت له إلا إنه لما قال هو وأخوه للسيد المسيح: "أَعْطِنَا أَنْ نَجْلِسَ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَالآخَرُ عَنْ يَسَارِكَ فِي مَجْدِكَ" (مر ١٠: ٣٧)، لم يوافق السيد المسيح بذلك. وقال لهما: "لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ. أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا الْكَأْسَ الَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا، وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا. فَقَالاَ لَهُ: نَسْتَطِيعُ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: أَمَّا الْكَأْسُ الَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا فَتَشْرَبَانِهَا، وَبَالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا تَصْطَبِغَانِ. **وَأَمَّا الْجُلُوسُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَلَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ إِلاَّ لِلَّذِينَ أُعِدَّ لَهُمْ**" (مر ١٠: ٣٨-٤٠).

فبالرغم من كل المميزات التي خص بها السيد المسيح يوحنا الحبيب إلا إنه لم يوافق أن يجلس عن يمينه أو عن يساره قائلاً: "وَأَمَّا الْجُلُوسُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَلَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ إِلاَّ لِلَّذِينَ أُعِدَّ لَهُمْ". هذا يبين كرامة السيدة العذراء مريم والدة الإله، التي يقول عنها المزمور أيضًا: "قامت الْمَلِكَةُ عَنْ يَمِينِكَ" (مز ٤٥: ٩).

ونلاحظ أن السيد المسيح لم يقل ليوحنا إن التي عن اليمين هي أمه، لئلا يظن أحد أنه متحيز لوالدته بسبب القرابة الجسدية، لذلك أضاف: "**لَيْسَ لِي** أَنْ أُعْطِيَهُ إِلاَّ لِلَّذِينَ أُعِدَّ لَهُمْ" فهو تدبير ثالوثي.

والشخصيتان اللتان سيجلسان عن يمين المسيح ويساره في مجده يتميزان بالتواضع الشديد وهما السيدة العذراء ويوحنا المعمدان.

قالت السيدة العذراء "لأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى اتِّضَاعِ أَمَتِهِ"، وقالت للملاك "هُوَذا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ" (لو ١: ٣٨).

السيدة العذراء لم تحاول أن تمجد نفسها أبدًا في أي شيء، بل بالعكس كانت دائمًا مختفية، وكانت دائمًا تحمل الآلام في قلبها دون أن تشكو. لم تشتكِ أنها ولَدت في حظيرة مواشي، لم تشتكِ وهي أم جديدة أن يأتي أمر بأن تذهب إلى مصر إلى بلد ليس بها أقارب أو معارف وتتشرد هناك. لم تشتكِ بسبب ما حدث لها نتيجة

حملها في السيد المسيح بما في ذلك شك يوسف. **احتملت كل ما أتى عليها في رضى، وهذا منتهى التواضع.**

كما إنها عاشت تخدم طوال حياتها باتضاع: حينما كان السيد المسيح في مرحلة الطفولة يحتاج عناية وحراسة، وعند الصليب كانت تقف بجواره في الوقت الذي هرب فيه أغلب تلاميذه ولم يبق سوى يوحنا الحبيب، وتخلى عنه كل أصدقائه ومعارفه، لكنها هي الأم الأمينة والوفية التي احتملت الكثير في صمت.

وإذا كانت قد استحقت كل هذه الكرامة فإن ذلك هو بمقدار تواضعها، إذ قالت "لأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى اتِّضَاعِ أَمَتِهِ. فَهُوَذَا مُنْذُ الآنَ جَمِيعُ الأَجْيَالِ تُطَوِّبُنِي" (لو ١: ٤٨).

تواضع العذراء مجال للتأمل

إن الكلام عن تواضع العذراء مريم لا ينتهي وهو مجال للتأمل أكثر منه مجال للحديث. فليتنا نتعلم من تواضعها ونخجل من أنفسنا حينما نسلك بكبرياء رغم إننا لم نصل أبدًا إلى الكرامة التي نالتها العذراء مريم.

فلينفعنا الله ببركة شفاعتها.

لم يكن من الممكن أن يخلق الله
الإنسان حرًا مريدًا على صورته
ومثاله ثم يتركه ليهلك بجسد
إبليس. لذلك تجسّد الله
الكلمة في ملء الزمان ودعى إسمه
عجيبًا مشيرًا إلهًا قديرًا أبا أبديًا
رئيس السلام. طوباك يا أمنا
العذراء مريم لأنك دعيت والدة الإله
إذ أن الإبن الكلمة قد ولد منك
بجسد الجسد وعبرنا من الموت
إلى الحياة لأنه هو الحياة الحقيقية

١/١/٢٠١١ م بيشوي
مطران دمياط وكفر الشيخ
وبراري القديسة دميانة